

التّضمين النّحويّ وأثره في المعنى

د. هادي أحمد فرحان الشّجيري

الجامعة العراقية

ملخص البحث

حظيت هذه اللغة-منذ نزول القرآن الكريم-بالعناية والاهتمام. وكيف لا ؟ وهي لغة ضمنت فيها معالم الهدى والرشاد. وجوانب الاهتمام بهذه اللغة الشريفة متنوعة، فشملت جميع مستوياتها، ابتداء من الحروف المفردة مروراً بتكوين المفردات، وانتهاء بالمركبات، فكانت كتب الصرف، ومعاجم اللغة، وكتب النحو، والبلاغة، وهذه الكتب بمجموعها تكفلت ببيان كل شاردة وواردة في هذه اللغة الشريفة.

وتبعاً لوظيفة اللغة عامة فإنّ الألفاظ قوالب للمعاني، وقد تنوعت هذه القوالب فكانت لغات شتى، ولكنها جميعاً لها غرض مشترك، هو التعبير عن المعنى، إذا فالمعنى هو لبها وأساسها، ولكنّ هذا المعنى لن يؤدي وظيفته على الوجه الأكمل إلا إذا ضبطت قوالبه بضوابط سليمة تكون محلّ اتفاق بين المتكلمين باللغة، وهذا ما سعى إليه علماء العربية، فكانت قواعد النحو المستنبطة من كلام العرب، إذا فالنحو ليس قواعد لفظية مجردة عن المعاني، بل حركات الإعراب التي تضبطها قواعد النحو ليست إلا أدلة على المعاني، يقول عبد القاهر الجرجاني: ((إنّ الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، وإنّ الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها)). وسلامة الأسلوب، وعلاقة اللفظ بسابقه ولاحقه، وتغيير الدلالة تبعاً لذلك، وإن توسع فيه البلاغيون فأساسه ولبّه علم النحو والإعراب، وما (أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز) لعبد القاهر الجرجاني عنّا ببعيد...

وهذا البحث جارٍ في إيضاح جانب من العلاقة بين اللفظ والمعنى، فقد وردت في اللغة أساليب في التعبير عن معنى معين بألفاظ متقاربة، يحسبها الغافل عنها أنها أدت المعنى ذاته، وأن بعض الاختلاف في التركيب قد لا يغير في المعنى شيئاً.

Abstract

Praise be to Allah who sent down his book Arab spokesman indicated, and vowed to save it for this book Quran, he said in an airtight Downloads: ((I mentioned we went to him and I guard)) (Stone 9), and save it saved us the Arabic language, and methods, they remain as long as the book of our Lord, is the language of eternity, was born to stay to be authorized by God to his order.

Has been devoted to this language - since the descent of the Holy Quran - the care and attention. And how can it not? The language of the guaranteed features of the guidance and the guidance.

And aspects of interest in this language the noble variety, expanded to all levels, beginning with the letters individual passing through the composition of vocabulary, and the end of the vehicle, was written exchange, and language dictionaries and grammar books, and eloquence, these books collectively undertook a statement every arcane detail in the language honest.

Depending on the function of language general, the words carry meanings, have varied these templates were the languages different, but they all have a common purpose, is the expression of meaning, if meaning is to them and based on, but this effect will not function fully unless seized cake controls properly be to be agreed between the speakers in, and this is what was sought by the scholars of Arabic, was a grammar derived from the words of the Arabs, if Valenho not the rules of verbal abstract meanings, but movements to express seized by the grammar is not only evidence of the meanings, says Abdul omnipotent Jorjani: ((The words to their meanings closed in order to be expressed is the one who opens it, and that the underlying purpose is to be extracted it)) ().

And safety of the method, and the relationship of word and subsequent predecessor, and the changing significance Accordingly, although the expansion of its core Albulagjun Vosash and the science of grammar and expression, and what (the secrets of eloquence, and signs of miracles) to Abdul omnipotent Jorjani us so long ago ...

This search is underway to clarify the relationship between word and meaning, the language contained in the methods to express a certain meaning in similar versions, calculated by the negligent they have the same meaning, and that some of the differences in composition may not change the meaning of nothing.

It is the word (hear) in expressions varied, as was once a transgressor himself meaning: ((on listen to cry right that day off)) (S 42), and again transgressor b) to (meaning: ((do not listen to the Pleroma and pelted from every side)) (Saffat 8), and a third transgressor Ballam, Kalhadit Sharif, who directed the imams, from Abu Hurayrah, may Allah be pleased with him, the Prophet peace be upon him, he said: If the Imam said: God is heard praise, say: O Lord you Praise (). as well as the Lord of the Arabs as saying: (distracted), and (come to), and (came) from the irrelevant.

So why is this diversity in the installation? And why this diversity in the links? Is this how was anonymous, without meaning, or whether the effect of meaning in the diversity of style?

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل كتابه بلسان عربي مبين، وتعهد بحفظه لهذا الكتاب الكريم، فقال في محكم التنزيل: ((إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ))(الحجر ٩)، وبحفظه حفظت لنا لغتنا العربية، وأساليبها، فهي باقية ما بقي كتاب ربنا، فهي لغة أبدية، ولدت لتبقى إلى أن يأذن الله بأمره. وقد حظيت هذه اللغة-منذ نزول القرآن الكريم-بالعناية والاهتمام. وكيف لا؟ وهي لغة ضُمَّنت فيها معالم الهدى والرشاد.

وجوانب الاهتمام بهذه اللغة الشريفة متنوعة، فشملت جميع مستوياتها، ابتداء من الحروف المفردة مروراً بتكوين المفردات، وانتهاء بالمركبات، فكانت كتب الصرف، ومعاجم اللغة، وكتب النحو، والبلاغة، وهذه الكتب بمجموعها تكفلت ببيان كل شاردة وواردة في هذه اللغة الشريفة.

وتبعاً لوظيفة اللغة عامة فإن الألفاظ قوالب للمعاني، وقد تنوعت هذه القوالب فكانت لغات شتى، ولكنها جميعاً لها غرض مشترك، هو التعبير عن المعنى، إذا فالمعنى هو لبها وأساسها، ولكن هذا المعنى لن يؤدي وظيفته على الوجه الأكمل إلا إذا ضبطت قوالبه بضوابط سليمة تكون محل اتفاق بين المتكلمين باللغة، وهذا ما سعى إليه علماء العربية، فكانت قواعد النحو المستنبطة من كلام العرب، إذا فالنحو ليس قواعد لفظية مجردة عن المعاني، بل حركات الإعراب التي تضبطها قواعد النحو ليست إلا أدلة على المعاني، يقول عبد القاهر الجرجاني: ((إن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، وإن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها))^(١).

وسلامة الأسلوب، وعلاقة اللفظ بسابقه ولحقه، وتغير الدلالة تبعاً لذلك، وإن توسع فيه البلاغيون فأساسه ولبُّه علم النحو والإعراب، وما (أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز) لعبد القاهر الجرجاني عناً ببعيد...

وهذا البحث جارٍ في إيضاح جانب من العلاقة بين اللفظ والمعنى، فقد وردت في اللغة أساليب في التعبير عن معنى معين بألفاظ متقاربة، يحسبها الغافل عنها أنها أدت المعنى ذاته، وأن بعض الاختلاف في التركيب قد لا يغير في المعنى شيئاً.

فمن ذلك لفظ (السماع) الوارد في تعبيرات متنوعة، إذ جاء مرة متعدياً بنفسه كقوله تعالى: ((يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ))(ق٤٢)، وثانية متعدياً بـ(إلى) كقوله تعالى: ((لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ))(الصافات ٨)، وثالثة متعدياً باللام، كالحديث الشريف الذي أخرجه الأئمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إذا قال الإمام: سمع الله لمن حمده، فقولوا: اللهم ربنا لك الحمد^(٢). وكذا ورد عن العرب قولهم: (جئتته)، و(جئت إليه)، و(جاء) من غير صلة.

فلماذا هذا التنوع في التركيب؟ ولماذا هذا التنوع في الصلات؟ أهكذا جاء غفلاً بلا قصد، أم كان للمعنى أثره في تنوع الأسلوب؟

لقد أجاب أهل العلم ردا عن هذه التساؤلات، وإبرازا لخصائص هذه اللغة في التعبير، بقولهم عن المثال الأول: إنَّ الأصل في الفعل (سمع) أن يتعدى بنفسه ليدل على المعنى المقصود المشهور، وهو السماع كقوله تعالى: ((يوم يسمعون الصيحة))، وإن ضمن الفعل معنى إضافيا عدى بحرف مناسب للمعنى المضمن، فمعنى الفعل في قوله تعالى: ((لا يسمعون))، أي: لا يصغون، ومعناه في الحديث الشريف: استجاب^(٣).

وعن المثال الثاني يقو أبو هلال العسكري: ((الفرق بين قولك: (جئته)، و(جئت إليه)، إنَّ في قولك: جئته إليه معنى الغاية من أجل دخول (إلى) ، و(جئته): قصدته بمجيء، وإذا لم تعده لم يكن فيه دلالة على القصد، كقولك: جاء المطر))^(٤).

وهذا البحث إنما هو محاولة للكشف عن أسرار هذا الأسلوب الذي اصطلح العلماء على تسميته بالتضمين.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون بين هذه المقدمة والخاتمة على النحو الآتي:

التمهيد، وفيه: ١- التضمين في اللغة.

٢- التضمين البياني.

٣- التضمين العروضي.

المبحث الأول: التضمين دراسة نظرية، وفيه:

١- التضمين النحوي.

٢- التضمين وأقسام الكلم.

٣- التضمين ونيابة الحروف.

٤- العلاقة بين التضمين ومصطلحي: التقدير، والعدل.

٥- التضمين بين السماع والقياس.

المبحث الثاني: التضمين دراسة تطبيقية، وفيه:

١- من شواهد التضمين.

٢- التضمين والتعليل النحوي.

٣- من فوائد التضمين.

وختاما أسأل الله الكريم أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وأن ينفع به طلاب العربية،

وعشاق أسرارها، إنَّه وليّ ذلك والقادر عليه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

التمهيد

أولاً: التضمين في اللغة.
ثانياً: التضمين في البلاغة.

١ - التضمين اللغوي:

الضَّمِينُ: الكفيل. وضَمِنَ الشيءَ وبه ضَمَاناً وضَمَاناً: كَفَلَ به. وضَمَّنَه إياه: كَفَلَه. يقال: ضَمِنْتُ الشيءَ أَضْمَنُهُ ضَمَاناً، فأنا ضامِنٌ، وهو مَضْمُونٌ. وضَمَّنْتُ الشيءَ تضميناً، فَتَضَمَّنَهُ عَنِّي: غَرَمْتُهُ فَالْتَرَمَهُ، وهذا المعنى هو أصل معنى التضمين عند الفقهاء^(٥).

وضَمَّنَ الشيءَ الشيءَ: أودَّعه إياه كما تُودَعُ الوعاءُ المتاعَ والميتَ القبرَ، وقد تَضَمَّنَه هو؛ قال ابن الرِّقَاعِ يصف ناقه حاملاً:

أَوَكَّتْ عَلَيْهِ مَضِيْقاً مِنْ عَوَاهِنِهَا كَمَا تَضَمَّنَ كَشْحُ الْحَرَّةِ الْحَبَلَا

عليه: على الجنين. وكل شيء جعلته في وعاء فقد ضَمَّنْتَه إياه^(٦).

قال الليث^(٧): كل شيءٍ أُحْرِرَ فِيهِ شيءٌ فقد ضَمَّنْتَه؛ وأنشد:

ليس لمن ضَمَّنَه تَرْبِيئُ

ضَمَّنَه: أودع فيه وأحرر يعني القبر الذي دُفِنَتْ فِيهِ الْمُؤَوَّدَةُ.

وروي عن عكرمة أنه قال: لا تَشْتَرِ لَبِنَ البقر والغنم مُضْمَنًا؛ لأن اللبن يزيد في الضرع وينقص، ولكن اشتريه كيلاً مُسَمًى؛ قال شمر: قال أبو معاذ يقول لا تشتريه وهو في الضرع لأنه في ضِمْنِهِ، يقال: شَرَايُكَ مُضْمَنٌ إِذَا كَانَ فِي كوزٍ أَوْ إِنَاءٍ. والمضامينُ: ما في بطون الحوامل من كل شيء كأنهن تَضَمَّنَتْه.

ويقال: ضَمِنَ الشيءَ بمعنى تَضَمَّنَهُ؛ ومنه قولهم: مَضْمُونُ الكِتَابِ كذا وكذا، وفهمت ما تَضَمَّنَهُ كتابك أي ما اشتمل عليه وكان في ضِمْنِهِ، وأنفذتُه ضِمْنُ كِتَابِي أَي فِي طَيِّهِ^(٨). وهذا أصل التضمين البياني والنحوي الذي سيفصل قريباً.

والمُضْمَنُ من الشعر: ما ضَمَّنْتَهُ بيتاً، وقيل ما لم تتم معاني قوافيه إلا بالبيت الذي يليه، وفي المحكم: المُضْمَنُ من أبيات الشعر ما لم يتم معناه إلا في البيت الذي بعده، ومنه قول النابغة- إذ ضَمَّنَ فِيهِ اسْمَ إِنِّ وَخَبْرَهَا-:

وهم وَرَدُوا الجِفَارَ على تَمِيمٍ وهم أَصْحَابُ يَوْمِ عُكَاظَ، إِنِّي
شَهَدْتُ لَهُمْ مَوَاطِنَ صَادِقَاتٍ أَتَيْتُهُمْ بِوَدِّ الصَّدْرِ مِنِّي

وقد اصطلح على تسمية هذا النوع من التضمين بالتضمين العروضي، وفي حسنه وجوازه خلاف يطلب في مظاته^(٩).

٢ - التضمين البلاغي

ورد مصطلح التضمين في علمين من علوم البلاغة، هما: البيان والبدیع، وتبعاً لهذين القسمين سيكون الحديث عنه:
التضمين البياني:

تعددت الزوايا التي نظر من خلالها علماء البيان لمصطلح التضمين، فصحب ذلك سعة في القول تتناسب هذه النظرات، ومن الأمور التي أوسعوا فيها القول: مفهوم التضمين، وعلاقته بالحقيقة والمجاز والكناية، وكونه سماعياً أو قياسياً؛ ولكنني لن أجاري هؤلاء الأعلام في سعة قولهم، وحسبي أن أوجز القول فيما فصلوه تمهيدا للدخول في التضمين النحوي.

يقول العز بن عبد السلام في بيان مفهوم التضمين: ((تضمين اسم معنى اسم؛ لإفادة معناه، فتعديده تعديته في بعض المواضع، كقوله تعالى: ((حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَىٰ اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ)) (الأعراف ١٠٥)، فتضمن (حقيق) معنى فعل آخر فتعديده أيضاً تعديته في بعض المواضع))^(١٠).

ويقول ابن كمال باشا: ((التضمين أن يقصد بلفظ معناه الحقيقي، ومعنى لفظ آخر يناسبه، ويدل عليه بذكر شيء من متعلقات الآخر، كقولك: أحمدُ إليك فلانا، فإنك لاحظت فيه معنى الحمد مع معنى الانتهاء، ودلت عليه بذكر صلته، أعني: كلمة (إلى)، كأنك قلت: أنهى حمده إليك، وإنما أطلقنا لينتظم الاسم))^(١١).

أما عن علاقة التضمين بالحقيقة والمجاز، والكناية، فقد توسع فيه أهل البيان فكانوا على أقوال شتى، فذهب فريق منهم إلى أن التضمين البياني ضرب من ضروب الحقيقة؛ لأنَّ اللفظ مستعمل في معناه الحقيقي، ((لكن قصد تبعية معنى آخر يناسبه من غير أن يستعمل فيه ذلك، أو يقدر له لفظ آخر، فلا يكون التضمين من باب الكناية، ولا من باب الإضمار، بل من قبيل الحقيقة التي فيها قصد بمعناه الحقيقي معنى آخر يناسبه ويتبعه في الإرادة))^(١٢).

وذهب فريق ثانٍ إلى أنه ضرب من ضروب المجاز المرسل؛ لأنه استعمال للفظ في غير ما استعمل له، وهذا معنى المجاز^(١٣).

وجمع فريق ثالث بين الرأيين فقالوا: إن التضمين جمع بين الحقيقة والمجاز؛ إذ يدل فيه اللفظ المذكور على معناه بنفسه، وعلى معنى المحذوف بقريئة^(١٤).

ورأى فريق رابع أنه نوع من الكناية ((ذلك أنه يجري في لفظ يراد منه معنيان: أحدهما مقصود في المقام أو السياق، والثاني: يمكن الأخذ به على الأصل، أعني على المعنى الموضوع له في أصل اللغة، وهذا هو حال الكناية))^(١٥). ولكل فريق مما تقدم أدلة مبسطة في مظانها، ومهما كان القسم الذي ينتمي إليه التضمين، فلن يغير ذلك من القيمة البلاغية التي يؤديها هذا الأسلوب في التعبير.

أما عن كونه قياسياً أو سماعياً فالخلاف في التضمين البياني يسير، فالإتفاق يكاد ينعقد على كونه قياسياً^(١٦)؛ ((إذ رأوا في التضمين ضرباً من ضروب التوسع بحذف لفظ كالحال، فالفعل المضمّن قد دلَّ على معناه الحقيقي، وأتت حال من الفعل الملحوظ دلت عليها القرينة فحذفت، وحذف العامل بدليل قياس لا شبهة فيه))^(١٧)، أما الخلاف الأكبر فوجدته عند النحاة، وله موضعه في هذا البحث.

التضمين البديعي:

للتضمين في علم البديع مفهوم يختلف عنه في علم البيان، وإن كان يشاركه في المفهوم العام من طرف خفي؛ إذ في كليهما إضافة معنى لآخر. فالتضمين في علم البديع هو أن يعمد الشاعر أو الناثر إلى بيت شعر أو عبارة لغيره فيضمنها كلامه، شعرا كان أو نثرا، على سبيل التمثيل^(١٨). وهو بعبارة ابن الأثير: ((أن يضمّن الشاعر شعره، والناثر نثره كلاما آخر لغيره؛ قصد الاستعانة على تأكيد المعنى المقصود))^(١٩). ومن أمثله قول كشاجم^(٢٠):

يَا حَاصِبَ الشَّيْبِ وَالْأَيَّامِ تُظْهِرُهُ هَذَا شَبَابٌ لَعَمْرُ اللَّهِ مَصْنُوعٌ
أَذْكَرْتَنِي قَوْلَ ذِي لُبٍّ وَتَجْرِبَةٍ فِي مِثْلِهِ لَكَ تَأْدِيبٌ وَتَفْرِيعٌ
(إِنَّ الْجَدِيدَ إِذَا مَا زِيدَ فِي خَلْقِ تَبَيَّنَ النَّاسُ أَنَّ الثَّوْبَ مَرْقُوعٌ)

إذ ضمن البيت الأخير، وهو لإبراهيم بن إسماعيل البنوي^(٢١).

وبين التضمين والسرقة خيط دقيق؛ لذا كان من شرط البيت المضمّن أن يكون مشهورا لئلا يلتبس بالسرقة^(٢٢).

وهناك نوع آخر من التضمين، وهو أن يضمّن الشاعر أو الناثر كلامه شيئا من القرآن أو الحديث، ويسميه بعضهم اقتباسا، ومنه قول الشاعر:

سَتَّبَقِي لَهَا فِي مُضْمَرِ الْقَلْبِ وَالْحَشَا سَرِيرَةٌ وُدٌّ (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ)

إذ ضمن الشاعر عجز البيت الآية التاسعة من سورة الطارق^(٢٣).

وفي الموضوع كلام مبسوط لا يليق به هذا المختصر^(٢٤).

المبحث الأول: التضمين دراسة نظرية

أولاً- التضمين النحوي:

إنَّ المتأمل في كتب النحو تستوقفه عبارات كثيرة، في أبواب نحوية متنوعة، ترد فيها عبارة التضمين، منها:

قول ابن الأنباري: ((وأما هؤلاء) فإنَّما بنيت لتضمُّنها معنى حرف الإشارة...))^(٢٥)، وقول ابن يعيش معللاً ببناء (أمس): ((والصواب إنَّه إنَّما بني لتضمُّنه لام المعرفة))^(٢٦)، وقول الزمخشري مبيناً سبب تعدي الفعل (عدا) بـ(عن): ((وإنَّما عُدِّيَ بـ(عن) لتضمُّن (عدا) معنى (نبا) و(علا))^(٢٧).

فهذه العبارات، وأمثالها كثيرة، تقرر بأنَّ ثمة أسلوباً لجأ إليه النحاة في التعليل لعدد من المسائل النحوية، والتراكيب اللغوية الفصيحة، التي رأوا فيها خروجاً عن الكثير الشائع. فما هو التضمين في عرفهم؟ وهل يختلف عن مصطلح التضمين البياني الذي عرفناه عن علماء البلاغة؟ ولن يتضح هذا التساؤل إلا بعد التعرف على مصطلح التضمين النحوي.

يقول ابن جني في بيانه: ((هو اتصال الفعل بحرف ليس ممَّا يتعدى به؛ لأنَّه في معنى فعل يتعدى به))^(٢٨)، ويقول ابن هشام في بيانه: ((قد يشربون لفظاً معنى لفظ، فيعطونه حكمه، ويسمى ذلك تضميناً))^(٢٩).

ومما تقدم يستطيع القارئ أن يتبين الصلة المشتركة بين التضمين النحوي، والتضمين البياني، في مفردات التعريف، لاشتراكهما في دراسة الأساليب اللغوية ذاتها.

يقول الشيخ محمد الخضر حسين في بيان صلة التضمين بعلمي النحو والبلاغة: ((فللتضمين صلة بقواعد الإعراب من جهة تعدي الفعل بنفسه أو تعديه بالحرف، وصلة بعلم البيان من جهة التصرف في معنى الفعل، وعدم الوقوف به عند حدِّ ما وُضِعَ له. ومن هذه الناحية لم يكن كبقية قواعد علم النحو، قد يستوي في العمل بها خاصَّة الناس وعامتهم))^(٣٠).

بل إنَّ شدة الترابط حدث ببعض الأئمة إلى القول الصريح بأنَّ التضمين النحوي هو التضمين البياني بعينه^(٣١).

ولكنَّ المتأمل فيما كتبه أصحاب الفريقين عن التضمين يجد، على الرغم من كثرة الجوانب المشتركة، أن ثمة أموراً دقيقة تفصل بين الفريقين، منها:

إنَّ الفريقين، وإن اشتركا في مفردات تعريف مصطلح التضمين، ودلالته العامة، إلا أنَّهما اختلفا في مجال البحث فيما بعد المصطلح، فعلماء النحو، في كثير من المواضع، اتخذوا التضمين علة نحوية لتقويم بعض الأساليب اللغوية الواردة في فصيح الكلام؛ إذ رأوا فيها خروجاً عن الكثير الشائع، واكتفوا

ببيان الرابط العام المعنوي الذي يربط بين معنى الفعل المضمّن والمضمّن، أمّا علماء البيان فكانت عنايتهم الكبرى هو بيان العلاقة بين المعنيين؛ لذا كثر الحديث عندهم عن الحقيقة والمجاز والكناية^(٣٢). وثمة فرق آخر في كيفية تفسير التضمين، إذ يرى علماء البيان ((أنّ الفعل المذكور إنّما يدل على معناه الوضعي، ويدل على المعنى الآخر لفظ محذوف، كالحال من الفعل المقدّر، بمعونة قرينة لفظية، فيجتمع في التضمين معنيان. ولم يتصوروا إشراب الفعل المذكور معنى الفعل الملحوظ، ليدل على المعنيين جميعاً، كما فعل النحاة))^(٣٣).

يزاد على ما تقدم أنّ التضمين عند النحاة أوسع مدخلا منه عند البيانين؛ إذ يدخل فيه أمثلة لا نجد لها موقعا في التضمين البياني، كما هو الحال في التضمين الذي عدّ علة للبناء في بعض الأسماء، كأسماء الشرط والاستفهام، وغيرها^(٣٤).

التضمين وأقسام الكلم:

عبارات كثير من الكُتّاب في حديثهم عن التضمين توحى أنّ التضمين مختصّ بالأفعال، وأنّه إنّما هو فعل ورد مع حرف لم يجر استعماله معه، جيئ به للدلالة على الفعل الذي جرى استعماله معه في الغالب.

يقول ابن جنّي: ((اعلم أنّ الفعل إذا كان بمعنى فعل آخر، وكان أحدهما يتعدى بحرف والآخر بآخر، فإنّ العرب قد تتسع فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه إيذانا بأنّ هذا الفعل في معنى ذلك الآخر؛ فذلك جيئ معه بالحرف المعتاد مع ما هو في معناه))^(٣٥).

وجاء في الأشباه والنظائر: ((من شأنهم أنّهم يضمّنون الفعل معنى فعل آخر فيجرونه مجراه، ويستعملونه استعماله، مع إرادة معنى المضمّن))^(٣٦).

وتبعا لهذه العبارات كانت الأمثلة كذلك، فجاءت تجسيدا لما حوته، فكانت في غالبها أفعالا ضمّنت معاني لأفعال أخرى باستعمال حروف الجر.

ولكنّ هذه الكثرة لا تعني انحسار التضمين في باب الأفعال، وإنّما قد تعداه إلى باقي أنواع الكلم، ولعل بعض العلماء قد تتبه على هذه المسألة فاختار في تعريفه ألفاظا أكثر شمولاً ممّا نص عليه السابقون، فقد نصّ العز بن عبد السلام في تعريفه الذي مرّ بنا آنفاً على أنّ التضمين يكون في الأسماء^(٣٧).

وقال ابن هشام في بيان التضمين: ((قد يشربون لفظا معنى لفظ، فيعطونه حكمه، وسُمّي ذلك تضمينا))^(٣٨)، وقال في موضع آخر مؤكداً وقوعه في الأسماء: ((وفائدة التضمين أن يدل بكلمة واحدة على معنى كلمتين، يدلك على ذلك أسماء الشرط، والاستفهام))^(٣٩).

وإمعانا في شمولية التضمين لأنواع الكلم نصّ على ذلك بعض أهل العلم، جاء في الكليات: ((ولا اختصاص للتضمين بالفعل، بل يجري في الفعل أيضا، قال التفتازاني: في تفسير قوله تعالى: ((وَهُوَ اللَّهُ

في السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ)) (الأنعام ٣)، لا يجوز تعلقه بلفظ (الله) لكونه اسما لا صفة، بل هو متعلق بالمعنى الوصفي الذي ضمَّنه اسم (الله)، كما في قولك: هو حاتم من طيِّئ، على تضمين معنى الجواد. وجريانه في الحرف ظاهر في قوله تعالى: ((مَا نَسَخْ مِنْ آيَةٍ)) (البقرة ١٠٦)، فإنَّ (ما) تضمَّن معنى (إن) الشرطية، ولذلك لزم جزم الفعل))^(٤٠).

التضمين ونيابة الحروف:

عقد ابن جنِّي في (الخصائص) بابا سمَّاه: (باب في استعمال الحروف بعضها مكان بعض)، ثمَّ أنكر على الناس تلقي هذا الباب على ظاهره، فقال: ((هذا الباب يتلقاه الناس مغسولا سادجا من الصنعة، وما أبعد الصواب عنه، وأوقفه دونه))^(٤١).

ثمَّ بين سبب ذلك؛ وهو قولنا: إنَّ هذا الحرف يكون بمعنى ذلك الحرف، هكذا مطلقا دون تقييد وتحديد، جاء في (الخصائص): ((وذلك أنَّهم يقولون: إنَّ (إلى) تكون بمعنى (مع) ، ويحتجون بقول الله سبحانه: (مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ) (آل عمران ٥٢)، أي: مع الله. ويقولون: إنَّ (في) تكون بمعنى (على)، ويحتجون بقوله عزَّ اسمه: (وَأَصْلَبْكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ) (طه ٧١)، أي: عليها.

ويقولون: تكون (الباء) بمعنى (عن)، ويحتجون بقولهم: رميت بالقوس، أي: عنها، ... وغير ذلك مما يوردونه))^(٤٢).

ثمَّ بين أنَّ استعمال حرف مكان حرف قد يكون في مواضع دون أخرى، على حسب الأحوال الداعية إليه، أمَّا أن يكون ذلك مطلقا فلا؛ لأنَّه إلى الفحش في القول، والإلباس في المعنى. يقول في بيان هذا الرأي: ((ولسنا ندفع أن يكون ذلك كما قالوا، لكننا نقول: إنَّه يكون معناه في موضع دون موضع على حسب الأحوال الداعية إليه، والمسوغة له، فأما في كلِّ موضع وعلى كلِّ حال فلا ؛ ألا ترى أنَّك إن أخذت في ظاهر هذا القول غفلا هكذا لا مقيدا لزمك عليه أن تقول: سرت إلى زيد، وأنت تريد: معه، وأن تقول: زيد في الفرس، وأنت تريد: عليه،...، وأن تقول: رويت الحديث بزید، وأنت تريد عنه، ونحو ذلك ممَّا يطول ويتفاحش))^(٤٣).

وتبعا لهذا النص، فإنَّ إطلاق القول بِنِابة بعض الحروف مناب بعض قد يؤدي، كما رأينا، إلى فوضى لغوية، كما أنَّ المنع منه يؤدي إلى معارضة النصوص الفصيحة التي وردت في القرآن الكريم، والسنة النبوية، ومنظوم العرب ومنثورهم، فلا بد، والحالة هذه، من تحديد هذه المسألة، وضبطها بضابط تضمن من خلاله المحافظة على مزية العربية في التعبير، ونضمن أيضا عدم الإسراف وتوسيع القول فيها.

قبل الدخول في تحديد هذا الضابط، نبدأ القول بتساؤل: لماذا صحَّ أن يقال: لأصلبكم في جدوع النخل، ولا يصحُّ أن يقال: زيد في الفرس؟

وللإجابة عن هذا التساؤل ونظائره لابد لنا من التوجه إلى المعنى الذي حمله التعبير الأول، وكذا المعنى الذي حمله التعبير الثاني؛ لأنه هو الحَكَم في جواز التعبير وعدمه.
وقد حاول ابن جنِّي أن يضع لهذا الباب ضابطاً، سمّاه فيما بعد تضميناً، يضبط من خلاله العلاقة بين معنى الفعل والحرف المستعمل معه، ويتلخص هذا الضابط في أمور أربعة:
الأول: إنَّ الفعل قد يكون مقاربا في المعنى لفعل آخر.
الثاني: إنَّ كلا من الفعلين المتقاربين في المعنى له حرفه الخاص الذي يتعدى به.
الثالث: إنَّ العرب تتوسع، فتوقع أحد الحرفين مكان صاحبه.
الرابع: إنَّ الغرض من استعمال الحرف مع غير فعله إنّما هو الإشارة إلى معنى الفعل الآخر، فيكون هذا الأسلوب إيذاناً بأنَّ هذا الفعل في معنى ذلك الآخر؛ فلذلك جيئ معه بالحرف المعتاد مع ما هو في معناه.

وما فصلته أجمله ابن جنبي بقوله: ((ولكن سنضع في ذلك رسماً يعمل عليه، ويؤمن التزام الشناعة لمكانه، اعلم أنّ الفعل إذا كان في معنى فعل آخر، وكان أحدهما يتعدى بحرف وآخر بآخر، فإنَّ العرب قد تتسع فتوقع أحد الحرفين موقع صاحبه إيذاناً بأنَّ هذا الفعل في معنى ذلك الآخر، فلذلك جيئ معه بالحرف المعتاد مع ما هو في معناه))^(٤٤).

فنعنصر هذا التركيب: فعل، وحرف لا يتعدى به ذلك الفعل، فيكون استعمال هذا الحرف دالاً على معنى الفعل الذي ألف استعماله معه، وهذا الأمر هو من باب التضمين، لا من باب نيابة الحروف مناب بعض.

نيابة الحروف في الميزان:

ذهب جمهور الكوفيين إلى أنّ حروف الجر ينوب بعضها مناب بعض، واستدلوا على ذلك بالشواهد الفصيحة من القرآن الكريم، وكلام العرب، ومما قالوا:
أ- استعمال (من):

إنَّها تأتي بمعنى (على)، يقول تعالى: ((وَنَصَرْنَا مِنْ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا)) (الأنبياء ٧٧)، وبمعنى (عن)، يقول تعالى: ((لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا)) (ق ٢٢).
ب- استعمال (الباء):

إنَّها تأتي بمعنى (عن)، يقول تعالى: ((سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ)) (المعارج ١)، وتأتي بمعنى (من)، يقول تعالى: ((عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ)) (الإنسان ٦).
ت- استعمال (على):

إنَّها تأتي بمعنى (في)، يقول تعالى: ((وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا)) (القصص ١٥)، وتأتي بمعنى (عن)، يقول الشاعر:

إذا رضيت عليّ بنو قشير لعمر و الله أعجبنى رضاها

وذهب جمهور البصريين إلى أنّ حروف الجر لا ينوب بعضها عن بعض إلا شذوذاً، أمّا قياساً فلا، وقالوا: ولا تصح إنابة حرف عن حرف، كما لا تنوب حروف النصب والجرم عن بعضها، وما أوهم ذلك فهو مؤوّل، إمّا على التضمين، أو على المجاز^(٤٥).

وقفه وحوار:

أرى أنّ الكوفيين أجازوا إنابة حرف عن حرف فيما وردت به الشواهد الفصيحة؛ لأنّ منهجهم قائم على إثبات ما وردت به الشواهد، وإن خالفت الكثير الشائع، ولنا أن نسألهم: هل لكم أن تجعلوا ذلك قياساً؟ فإن كان الجواب بالإيجاب فلنا أن نقول: قد وردت الشواهد الفصيحة باستعمال (إلى) مكان (مع) قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ((مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ)) (آل عمران ٥٢)، فهل يصح أن نقول: سرت إلى زيد، وأنا أريد: سرت معه؟

وقد ورد أيضاً استعمال (في) مكان (على)، قال تعالى: ((: وَأَصْلَبْتُكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ)) (طه ٧١)، فهل يصح أن نقول: زيد في الفرس، وأنا أريد: عليه؟

إنّ القول بقياسية هذه المسألة يؤدي إلى الإرباك واختلاط المعاني وعدم الإفهام، وهذا منافٍ لمهمة اللغة، يقول أبو هلال العسكري: ((وإذا كان اختلاف الحركات يوجب اختلاف المعاني، فاختلاف المعاني أنفسها أولى أن يكون كذلك؛ ولهذا المعنى قال المحققون من أهل العربية: إنّ حروف الجر لا تتعاقب، حتى قال ابن درستويه: في جواز تعاقبها إبطال حقيقة اللغة، وإفساد الحكمة فيها، والقول بخلافه يوجب العقل والقياس))^(٤٦).

ونقول أيضاً: إنّ الأصل في الألفاظ اللغوية أن يختص كلُّ لفظ منها بمعنى معين، وهذا الأصل هو الذي أدّى إلى إنكار الترادف، عند بعض الأئمة، وإلى القول: بأنّ الاشتراك معيب، وهو خلاف الأصل، هذا مع إمكانية تمييز المعاني من قراءتها، فكيف يكون الحال مع عدم إمكانية التمييز من القرائن اللفظية؟

فإن لم تكن المسألة قياساً لما أسلفنا، فلا أقلّ من إثباتها فيما وردت به الشواهد، ولنا مع هذا الإثبات وفتات:

الأولى: يجب أن يتركز في أذهاننا استقلالية الألفاظ اللغوية في دلالتها على معانيها، فالأصل أن يكون لكل معنى لفظه الذي يؤديه، يقول الرضي: ((واعلم أنّه إذا أمكن في كل حرف، يتوهم خروجه عن أصله وكونه بمعنى كلمة أخرى أو زيادته، أن يبقى على أصل معناه الموضوع هو له، ويضمّن فعله المعدّى به معنى من المعاني يستقيم به الكلام، فهو الأولى ... بل الواجب))^(٤٧).

الثانية: إنَّ هذه الاستقلالية في تأدية المعاني لا تعني عدم التقارب بينها، فقد يتقارب حرفان في الدلالة على معنى فيتعاقبان في الدلالة عليه؛ لأجل ما بينهما من تقارب.

جاء في الأصول: ((واعلم أنَّ العرب تتسع فيها_ أي الحروف_ فتقيم بعضها مقام بعض إذا تقاربت المعاني، فمن ذلك (الباء)، تقول: فلان بمكة، وفي مكة، وإنَّما جازا معاً ؛ لأنَّك إذا قلت : فلان بموضع كذا وكذا، فقد خبرت عن اتصاله والتصاقه بذلك الموضع، وإذا قلت: في موضع كذا، فقد خبرت بـ((في)) عن احتوائه إيَّاه، وإحاطته به، فإذا تقارب الحرفان فإنَّ هذا التقارب يصلح للمعاقبة، وإذا تباين معناها لم يجز، ألا ترى أنَّ رجلاً لو قال: مررت في زيد، أو كتبت إلى القلم، لم يكن هذا يلتبس به، فهذا حقيقة تعاقب حروف الخفض، فمتى لم يتقارب المعنى لم يجز))^(٤٨).

ويقول الدكتور فاضل السامرائي: ((والحق أنَّ الأصل في حروف الجر أن لا ينوب بعضها عن بعض، بل الأصل أنَّ لكل حرف معناه واستعماله، ولكن قد يقترب معنيان أو أكثر من معاني الحروف فتتعاور الحروف على هذا المعنى...، فمثلاً قد يتوسع في معنى الإصاق بالباء فيستعمل للظرفية، فتقول: أقمت بالبلد وفي البلد، ولكن يبقى لكل حرف معناه واستعماله المتقرب به، ولا يتماثلان تماماً))^(٤٩).

الثالثة: لنا أن نسأل: إذا كان الفعل يتعدى بحرف، وقد تركز في أذهاننا لكثرة الاستعمال لهذا المعنى، كالفعل (نصر)، مع (على)، يقول تعالى: ((وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرُهُمْ عَلَيْهِمْ)) (التوبة ٤٤)، فلماذا يتغير الأسلوب فجأة، ويتعدى الفعل (نصر) بـ(من)، في قوله تعالى: ((وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ)) (هود ٣٠) ؟ فهل لنا أن نقول: إنَّ (من) في التعبير الثاني بمعنى (على) ؟

إنَّ المتأمل يدرك أنَّ المعنى يرد على هذا القول، فليس المقصود: مَنْ يَنْصُرُنِي على الله، إذا لا بدَّ من القول بأن استعمال هذا الحرف قد أدَّى إلى معنى جديد في الفعل الذي تعدى به.

الرابعة: ليس لنا أن نقصر تفكيرنا في دلالة الحرف فقط، بمعزل عن السياق الذي ورد به، فلا بدَّ من الربط بين معنى الحرف ومعنى الفعل، ولا بدَّ من إيجاد المناسبة بين عناصر هذا التركيب الجديد؛ لأنَّ اللجوء إلى القول بأنَّ هذا الحرف ينوب عن ذلك الحرف هو هروب عن تدبر اللفظ المنطوق الظاهر الذي تلفظ به المتكلم .

ولنا أن نسأل ما الذي دعاه إلى ترك المؤلف إلى هذا الاستعمال الجديد؟ لا سيما إذا كانت الألفاظ واردة في القرآن الكريم، فعدوله لا بدَّ أن يكون لأمر مقصود، فالقرآن إنَّما يستعمل الألفاظ استعمالاً فنياً مقصوداً^(٥٠).

الخامسة: وبعد كل ما تقدم فإنَّنا نجد بغيتنا فيما ذهب إليه البصريون من القول بالتضمين؛ لأنَّ التعبير حينئذ سيكون فنياً ومقصوداً ومعبراً، ولك أن تحكم أيُّها أكثر متعة: أن نقول في قوله تعالى: ((وَنَصْرَتَاهُ مِنْ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا)) (الأنبياء ٧٧): إنَّ (من) هنا بمعنى (على)، وينتهي الأمر، أم أن نقول بقول البصريين الذي فصله الدكتور فاضل السامرائي بقوله، في معرض رده على الرأي الأول: ((ذهب

قوم إلى أن (من) هنا بمعنى (على)، وهذا فيه نظر؛ فإنَّ هناك فرقا في المعنى بين قولك : نصره منه، ونصره عليه.

فالنصر عليه يعني التمكن منه، والاستعلاء عليه والغلبة، قال تعالى: ((فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ)) (البقرة ٢٨٦)، أي: مكنا منهم، وليس هذا معنى نصره منه.

أما (نصرناه منهم)، فإنه بمعنى: نجيناه منهم أو منعناه منهم، قال تعالى: ((وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ)) (هود ٣٠)، فليس المعنى: مَنْ يَنْصُرُنِي عَلَى اللَّهِ، بل مَنْ يَنْجِينِي وَيَمْنَعُنِي مِنْهُ.

وقد تقول: ما الفرق بين قولنا: (نجيناه من القوم)، وقولنا: (ونصرناه من القوم)؟ والجواب: أن النتيجة تتعلق بالناجي فقط، فعندما نقول: نجيتهم منهم، كان المعنى: أنك خلصته منهم، ولم تذكر أنك تعرضت للآخرين بشيء، كما تقول: نجيتهم من الغرق، ولا تقول: نصرته من الغرق؛ لأنَّ الغرق ليس شيئا ينتصف منه.

أما (النصر منهم) ففيه جانبان في الغالب: جانب الناجي، وجانب الذين نُجِّيَ منهم، فعندما تقول: نصرته منهم، كان المعنى: أنك نجيتهم، وعاقبت أولئك أو أخذت له حقه منهم^(٥١).

ثانيا- الفرق بين التضمين وبعض المصطلحات:

بلغ من دقة علماء النحو أنهم مازوا في بحوثهم بين أمور قد تبدوا لأول وهلة أنها متشابهة مع التضمين؛ سعيا منهم لتخليص هذا المصطلح مما قد يعلق به، منها: التقدير، والعدل، وفيما يأتي إيجاز القول في هذا التفريق.

الفرق بين التضمين والتقدير:

نقرأ في كتب النحو، تعليلا على نصب بعض المفردات في أبواب نحوية متنوعة، مثل لفظ (يوم) في قولنا: خرجت يوم الجمعة، ونظائره، قول النحاة: إنَّه نصب بتقدير (في)، ونقرأ قولهم في تعليل بناء (أين) مثلا: إنَّه بني لتضمُّنه معنى حرف الاستفهام، فهل هناك فرق بين ذكر (في) في التعليل الأول، وحرف الاستفهام في التعليل الثاني؟

والمأمل فيما كتبه النحاة في بيان هذا الفرق يجد الآتي:

أولا: إنَّ التضمين لا يصح معه إظهار الحرف المضمَّن بخلاف التقدير؛ إذ يجوز إظهاره معه سواء اتفق الإعراب أم اختلف ((فتقول في) خرجت يوم الجمعة): خرجت في يوم الجمعة، ولا تقول في (أين)، و(كيف) مثلا: هل أين، ولا أين، ولا هل كيف، ولا كيف))^(٥٢).

ثانيا: إنَّ الحرف الذي يكون على نية التضمين يوجب البناء في الاسم، بخلاف التقدير؛ لذا فإنَّنا ((إذا قلنا في الظرف إنَّه يراد فيه معنى (في)، فإنَّنا لا نريد به أن الظرف متضمَّن معنى (في)، كيف، ولو كان كذلك لبني، وإنما نعني به أن قوة الكلام في قوة كلام آخر فيه (في) ظاهرة))^(٥٣).

الفرق بين التضمين والعدل:

يقول النحاة: إنَّ (أمس) ((مبني لتضمُّنه معنى لام التعريف؛ فإنَّه معرفة بدليل: أمس الدابر، وليس بعلم، ولا مبهم، ولا مضاف، ولا مضمر، ولا بلام ظاهرة فتعين تقديرها))^(٥٤). وقالوا في بيان بعض المفردات الممنوعة من الصرف، ك(سحر) مثلا: ((إذا أريد من يوم بعينه، نحو: جئتكَ يوم الجمعة سحر، ف(سحر) ممنوع من الصرف للعدل، وشبه العلمية؛ وذلك أنَّه معدول عن (السحر)؛ لأنَّه معرفة، والأصل في التعريف أن يكون ب(أل)، فعدل به عن ذلك، وصار تعريفه كتعريف العلمية من جهة أنَّه لم يُلفظ معه حرف))^(٥٥).

وتبعاً لقول النحاة فإنَّ (أمس) على نية تقدير اللام، وكذلك كلمة (سحر)، فما الفرق بين التقديرين؟ أول هذه الفروق: ((إنَّ المعدول عن اللام يجوز إظهارها معه؛ فلذلك أعرب، والمضمَّن لها لا يجوز إظهارها معه، كأسماء الاستفهام، والشرط المتضمنة لمعنى الحرف، فلذلك بُني في التضمين))، ولا يقدر في هذا الأمر ورود كلمة (الأمس)؛ لأنَّ اللام بعد تنكيره وإعرابه، كما يعرب إذا أضيف، أو صُعِّرَ، أو نُثِّيَ، أو جُمِعَ^(٥٦).

وثانيها: إنَّ العدل هو أن يريد المتكلم لفظاً، ويعدل عنه إلى لفظ آخر، ك(عمر)، الذي عدل به عن (عامر)، و(سحر) الذي عدل به عن (السحر)، والتضمين أن تضمَّن الكلمة معنى آخر لا يوجب ظاهر اللفظ^(٥٧).

وثالثها: إنَّ التضمين أوجب في الكلمة المتضمَّنة البناء، ومنع الإعراب، أمَّا العدل فهو مع علة أخرى يوجب منع الصرف فقط^(٥٨).

ثالثاً: التضمين بين السماع والقياس:

اختلف العلماء في نظرهم إلى التضمين بين قائل بقياسيته؛ لوروده بكثرة في الكلام العربي، وقائل بسماعية هذا الباب؛ لأنَّ فتحه قد يؤدي إلى فساد كبير في الأساليب والتعابير بدعوى تضمينها لأساليب أخرى.

يقول ابن جني بعد أن ذكر أمثلة من هذا الباب: ((فقس على هذا؛ فإنَّك لن تعدم إصابة بإذن الله ورشداً))^(٥٩).

وجاء في الأشباه والنظائر: ((زعم قوم من المتأخرين منهم خطاب المارديني: أنَّه يجوز تضمين الفعل المتعدي لواحد معنى (صير)، ويكون من باب ظنَّ، فأجاز حفرت وسط الدار بئراً، أي: صيرت، قال: وليس (بئراً) تمييزاً؛ إذ لا يصلح لمن.

وكذا أجاز: بنيت الدار مسجداً، وقطعت الثوب قميصاً، وقطعت الجلد نعلاً، وصبغت الثوب أبيض، وجعل من ذلك قول أبي الطيب:

فَمَضَتْ وَقَدْ صَبَغَ الْحَيَاءُ بِيَاضَهَا
لُونِي كَمَا صَبَغَ اللَّجِينُ الْعَسْجَدَا
لأنَّ المعنى: صيّر الحياء بياضها لوني، أي مثل لوني.
قال: والحق أن التضمين لا ينقاس^(٦٠).

وما اختلف فيه القدماء سرى إلى المحدثين، وقد سجل لنا قلم الأستاذ حسين والي ما جرى بين أعضاء مجمع اللغة العربية في القاهرة بشأن هذه المسألة، فقال: ((فإذا قرنا: التضمين قياسي، فقد جرينا على قول له قوة، وإذا قلنا: إنه سماعي، فقد يعترض علينا من يقول: إن من علماء اللغة من يرى أنه قياسي؛ فلماذا تضيقون على الناس، وما جئتم إلا لتسهلوا اللغة عليهم؟ فنحن نثبت القولين بالسماع والقياس، ولكننا نرجح قياسيته^(٦١).

ثم انتهى المجلس بعد مناقشات ومباحثات إلى قرار، وافق عليه أكثر المجتمعين، جاء فيه: ((التضمين : أن يؤدي فعل أو ما في معناه في التعبير مؤدى فعل آخر أو ما في معناه، فيعطى حكمه في التعديّة واللزوم، ومجمع اللغة العربية يرى أنه قياسي لا سماعي بشروط ثلاثة: الأول: تحقق المناسبة بين الفعلين.

الثاني: وجود قرينة تدل على ملاحظة الفعل الآخر، ويؤمن معها اللبس.
الثالث: ملاءمة التضمين للذوق العربي، ويوصي المجمع ألا يلجأ إلى التضمين إلا لغرض بلاغي^(٦٢).
وحذا المجمع الملكي حذو سابقه فقرر قياسية التضمين بشروط، هي شروط المجاز نفسه^(٦٣).

وما نتج عن هذه المجامع يجمع بين المحافظة على الشواهد وقيمتها في تعديد القواعد، وبين بلاغة العرب في تأديتها للمعاني، ودقتها في اختيار الألفاظ؛ فوجود المناسبة وقصد البلاغة في التضمين قيد مهم في المحافظة على الأساليب العربية، فلا مكان لأسلوب دخيل ركيك بين أساليبها، وإن ادعى من تكلم فيه أن له وجهاً في العربية.

المبحث الثاني: التضمين دراسة تطبيقية

أولاً: من شواهد التضمين وأقوال أهل العلم:

شواهد هذا الباب كثيرة ومتنوعة، يقول ابن جني في بيان كثرتها: ((وجدت في اللغة من هذا الفن شيئاً كثيراً لا يكاد يحاط به، ولعله لو جمع أكثره لا جميعه لجا كتاباً ضخماً^(٦٤).

ولكن حسبي من هذا الكثير أمثلة يأنس القارئ بها، ويقيس عليها أخواتها، ويتضح من خلالها أثر التضمين في معنى التركيب اللغوي، فمن ذلك:

قوله تعالى: ((أَجَلٌ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ)) (البقرة ١٨٧):

فنحن لا نقول: رفثت إلى المرأة، وإنما نقول: رفثت بها أو معها؛ لكنه لما كان (الرفث) بمعنى الإفضاء، وكنا نعدي (أفضيت) بـ(إلى)، مثل قوله تعالى: ((وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ)) (النساء ٢١)، جئنا بـ(إلى) مع (الرفث) إيذاناً وإشعاراً أنه بمعناه^(٦٥).

يقول ابن الشجري: ((أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ)) جيء به محمولاً على الإفضاء الذي يرد به الملامسة^(٦٦).

وقوله تعالى: ((لِلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ)) (البقرة ٢٢٦):

يقول ابن هشام: ((أي: يمتنعون من وطء نسائهم بالحلف؛ فهذا عدي بـ(من)، ولما خفي التضمين على بعضهم في الآية، ورأى أنه لا يقال: حلفت من كذا، بل حلفت عليه؛ قال: (من) متعلقة بمعنى (للذين) كما تقول لي منك مبرة.

قال: وأما قول الفقهاء: آلى من امرأته، فغلط أوقعهم فيه عدم فهم المتعلق في الآية^(٦٧).

وقوله تعالى: ((يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ)) (التوبة ٣٥):

يقول ابن الشجري: ((ومنها تعدية الإحماء في قوله: (يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ)، وهو متعد بنفسه في قولك: أحميت الحديد، وقال الشاعر:

إِنْ تَكُ جَلْمُودَ صَخْرٍ لَا أَوْيِسُهُ أَوْقَدَ عَلَيْهِ فَأَحْمِيهِ فَيَنْصَدِعُ

أَوْيِسُهُ: أدلله؛ إنما حمل (يحمى) على (بوقد)؛ لأن الإيقاد عليها هو السبب في المؤدي إلى إحماؤها، فأجرى (يحمى) عليها) مجري (بوقد) عليها)، والمعنى: تحمى هي^(٦٨).

وقوله تعالى: ((وَلَا تَعُدُّ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)) (الكهف ٢٨):

يقول الزمخشري: ((يقال: عداه، إذا جاوزه، ومنه قولهم: عدا طوره...، وإنما عُدِّي بـ(عن) لتضمن (عدا) معنى (نبا)، و (علا) في قولك: نبت عنه عينه، وعلت عنه عينه، إذا اقتحمته ولم تعلق به^(٦٩).

وقوله تعالى: ((فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ)) (آل عمران ٥٢):

يقول ابن جني: ((أي: مع الله، وأنت لا تقول: سرت إلى زيد، أي: معه؛ لكنه إنما جاء (مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ) لما كان معناه: من ينضاف في نصرتي إلى الله، فجاز لذلك أن تأتي هنا (إلى) ^(٧٠).

ومنه قول الفرزدق:

كيف تراني قَالِباً مَجْنِي أَضْرِبُ أَمْرِي ظَهْرَهُ لِلْبَطْنِ

فَدَقْتُ لَللَّهِ زِيَاداً عَنِّي

يقول ابن جني: ((لما كان ذلك في معنى: صرفه عني، وكان أبو علي يستحسنه، وينبه عليه^(٧١).

ومنه قول القحيف العقيلي:

إِذَا رَضِيَتْ عَلَيَّ بَنُو قُشَيْرٍ لَعَمْرُ اللَّهِ أَعْجَبَنِي رِضَاهَا

يقول ابن جنى: ((أراد: عني، وجهه: أنها إذا رضيت عنه أحبته وأقبلت عليه؛ فلذلك استعمل (على) بمعنى(عن))^(٧٢).

ثانيا: التضمين والتعليل النحوي:

التضمين باب واسع، وملجأ رحب، لجأ النحاة إليه في تعليلهم لبعض المسائل النحوية، ومنها:

١ - البناء:

باب الإعراب والبناء من أوائل الأبواب التي يطلع عليها القارئ في الكتب النحوية، وقد قسم النحاة الأسماء تبعا لهذا الباب إلى أسماء معربة، وهذا هو الأصل فيها فلا يسأل عن علة، وأسماء مبنية، جاءت على خلاف الأصل، وما كان مخالفا لأصله، فلا بد له من علة، وقد جمع ابن مالك علل البناء في الأسماء في خلاصته بقوله^(٧٣):

والاسمُ منه مُعَرَّبٌ ومَبْنِي
كَالشَّبهِ الوَضْعِيّ فِي اسْمِي جِنْتَنَا
لشبهه من الحروفِ مُدْنِي
والمَعْنَوِيّ فِي مَتَى وَفِي هُنَا
وَكِنْيَابَةٍ عَنِ الفِعْلِ بِلا
تَأْتُرُ وَكَافْتِقَارِ أَصْلًا

وقد اتكأ النحاة كثيرا على التضمين في تفسير كثير من هذه المبنيات، وهاك تفصيلها:

أ - أسماء الاستفهام:

ذهب جمهور النحاة إلى أن سبب البناء في هذه الأسماء إنما هو تضمُّنها لمعنى حرف الاستفهام الهمزة، ذلك أن الهمزة أم أدوات هذا الباب، وهي حرف وأصله أن يبنى، فإن أدبي الاستفهام باسم فلا بد لهذا الاسم من أن يتضمن معنى حرف الاستفهام، وتضمين معنى الحرف للاسم يحد من تصرفه؛ فيوجب له البناء .

قال أبو البركات الأنباري: ((وأما (أين) و(كيف) فإنما بُنِيَا على الفتح؛ لأنَّهما تضمَّنَا معنى حرف الاستفهام؛ لأنَّ (أين) سؤال عن المكان، و(كيف) سؤال عن الحال، فلما تضمَّنَا معنى حرف الاستفهام وجب أن يبنيا))^(٧٤).

وقال ابن يعيش: ((وأما (أين) فظرف من ظروف الأمكنة، وهو مبني لتضمُّنه همزة الاستفهام))^(٧٥). وقال أيضا: ((كيف سؤال عن الحال، وتضمَّنت همزة الاستفهام))^(٧٦).

ب - أسماء الشرط:

أصل أدوات الشرط حرف (إن)؛ لذا فإن ما عداها من حروف وأسماء تبع لها، وفرع عنها، والفرع لا بد أن يتضمن معنى الأصل؛ لذا فإنَّ تعليل النحاة لبناء أسماء الشرط إنما هو تضمُّنها لمعنى حرف الشرط (إن)، قال أبو البركات الأنباري: ((فأما (من) فإنَّها بُنِيَتْ؛ لأنَّها لا تخلو: إمَّا أن تكون

استفهامية، أو شرطية، أو اسماً موصولاً، أو نكرة موصوفة، فإن كانت استفهامية فقد تضمنت معنى حرف الاستفهام، وإن كانت شرطية تضمنت معنى حرف الشرط...))^(٧٧).

ت - أسماء الإشارة:

الإشارة معنى من المعاني فكان ينبغي أن يوضع لها حرف شأنها شأن بقية المعاني، كالنفي والاستفهام، والشرط، وغيرها، ولكن لم يرد عن العرب استعمال حرف لمعنى الإشارة، لذا فأسماء الإشارة في نظر النحاة إنما بنيت لمشابتها لحرف مفترض، قال ابن عقيل: ((الإشارة معنى من المعاني، فحقها أن يوضع لها حرف يدل عليها، كما وضعوا للنفي (ما)، وللنهي (لا)، وللتمني (ليت)، وللترجي (لعل)، ونحو ذلك؛ فبنيت أسماء الإشارة لشبهها في المعنى حرفاً مقدراً))^(٧٨).

وقال أبو البركات الأنباري معللاً ببناء (هؤلاء): ((وأما هؤلاء) فإنما بنيت لتضمنها معنى حرف الإشارة وإن لم ينطق به؛ لأن الأصل في الإشارة أن تكون بالحرف كالشرط، والنفي، والتمني، والعطف إلى غير ذلك من المعاني، إلا أنهم لما لم يفعلوا ذلك ضمنوا (هؤلاء) معنى حرف الإشارة فبنوها))^(٧٩).

ث - الظروف:

وردت في العربية بعض الأسماء المبنية الدالة على معنى الظرفية، وكان التضمين العلة النحوية التي اختارها النحاة سبباً لبناء هذه الأسماء، ومن أشهرها: الآن، ومذ، ومنذ^(٨٠).
جاء في التبيان عند قوله تعالى ((قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ)) (البقرة ٧١): ((الألف واللام في (الآن) زائدة، وهو مبني، قال الزجاج: بني لتضمنه معنى حرف الإشارة، كأنك قلت: هذا الوقت، وقال أبو علي: بني لتضمنه لام معنى التعريف؛ لأن الألف واللام الملفوظ بهما لم تعرفه، ولا هو علم، ولا مضمر، ولا شيء من أقسام المعارف فيلزم أن يكون تعريفه باللام المقدرة، واللام هنا زائدة زيادة لازمة، كما لزمتم في (الذي)، وفي اسم (الله))^(٨١).

يقول أبو البركات الأنباري مبيناً سبب بناء (مذ، ومنذ): ((فإن قيل: قَلِمَ بُنِيَتْ (مذ، ومنذ)، قيل: لأنهما إذا كانا حرفين بُنِيَا؛ لأن الحروف كلها مبنية، وإذا كانا اسمين بُنِيَا لتضمنهما معنى الحرف؛ لأنك إذا قلت: ما رأيته مذ يومان، ومنذ ليلتان، كان المعنى فيه: ما رأيته من أول اليومين إلى آخرهما، ومن أول الليلتين إلى آخرهما؛ ولما تضمنتا معنى الحروف وجب أن يُبْنِيَا))^(٨٢).

ج - الأسماء المركبة:

من نافلة القول أن يذكر أن الأعداد المركبة من أحد عشر إلى تسعة عشر مبنية على فتح الجزأين، ولكن العلة التي كانت سبباً في بناء هذه الأسماء المركبة في رأي النحاة هو التضمين، يقول ابن يعيش مفصلاً سبب بناء هذه الأعداد: ((ألا ترى أن الأصل في (أحد وعشرة) عدة معلومة أضيفت إلى العدد الأول فكمل من مجموعها مقدار معلوم، فهما اسمان كل واحد منهما منفرد في شيء من المعنى، فلما

كانت الواو مرادة تضمنها الاسم الثاني وبُنيَ لذلك، وبني الاسم الأول ؛ لأنه صار بالتركيب كـبعض اسم بمنزلة صدر الكلمة من عجزها))^(٨٣).

وقد حملوا على بناء العدد المركب بناء كثير من الأسماء التي وردت مركبة نحو: (حِصَصَ بَيْصَ)، و(بَيْتَ بَيْتَ)، و(صَبَاحَ مَسَاءَ)^(٨٤).

ح- المثنى والجمع:

من غرائب مسائل الخلاف التي وردت عن النحاة اختلافهم في (المثنى و الجمع) هل هما معريان أو مبنيان؟

فقد جاء في التبيين: ((وحكي عن الزجاج أنَّهما مبنيان))^(٨٥)، وجاء في الإنصاف: ((وحكي عن أبي إسحاق الزجاج أنَّ التثنية والجمع مبنيان، وهو خلاف الإجماع))^(٨٦).

والذي يهمننا في هذا الرأي هو العلة التي كانت سببا للبناء، فقد كان تضمين معنى حرف العطف هو العلة التي اتكأ عليها أصحاب هذا الرأي، يقول العكبري مبيناً حجة من قال بالبناء: ((واحتج للمخالف أنَّ المثنى والجمع يتضمن واو العطف فكان الاسم به مبنياً خمسة عشر ونحوه))^(٨٧).

خ- أسماء الأفعال:

من أسماء الأفعال التي نصَّ بعض النحاة على أنَّ التضمين علة بنائها صيغة (فَعَالٍ)، ومن أضرب هذه الصيغة أن تكون اسماً للفعل في حال الأمر، نحو: (نَزَلَ، وَتَرَكَ)، ويكون مبنياً على الكسر، وسبب بنائه يوضحه ابن يعيش بقوله: ((وإنَّما بُنِيَ لما ذكرناه من وقوعه موقع فعل الأمر، وهذا تقريب، والحق في ذلك أنَّ علة بنائه إنَّما هي لتضمُّنه معنى لام الأمر، ألا ترى أنَّ (نَزَلَ)، بمعنى: انزل، وكذلك (صه)، بمعنى: اسكت، وأصل (اسكت)، و(انزل)، لتسكت، ولتنزل، كما أنَّ أصل (قم) لتقم، وأصل (اقد) لتقعد، يدلُّ على ذلك أنَّه قد جاء على الأصل في قوله تعالى: ((فَبِذَلِكَ فَلَنُفَرِّحُوهُنَّ)) (يونس ٥٨)، فلما تضمنت هذه الأسماء معنى (لام الأمر) شابته الحروف، فبنيت كما بنيت (كيف)، و(كم) لما تضمن كل واحد منهما حرف الاستفهام))^(٨٨).

٢- منع التصرف في بعض المشتقات:

وضع النحاة قاعدة مفادها: أنَّ كل ما تضمن ما ليس له في الأصل منع شيئاً ممَّا له في الأصل؛ ليكون ذلك المنع دليلاً على ما تضمنه^(٨٩).

وتبعاً لهذه القاعدة عللوا عدم التصرف في باب (نعم وبنس)، وباب (التعجب)، يقول السيوطي موضحاً هذا التعليل: ((نعم، وبنس إنَّما منعا التصرف؛ لأنَّ لفظهما ماضٍ، ومعناهما إنشاء المدح والذم في الحال؛ فلما تضمنا ما ليس لهما في الأصل، وهو الدلالة على الحال، منعا التصرف لذلك.

وكذلك فعل التعجب، تضمَّن ما ليس له في الأصل، وهو زيادة الوصف والدلالة على بقاء الوصف إلى الحال، فمنع التصرف لذلك))^(٩٠).

٣- التعدي واللزوم في الأفعال:

قسم النحاة الأفعال تبعا لتعلقها بما بعدها على قسمين: الأفعال المتعدية، والأفعال اللازمة، وعرفوا المتعدي بأنه: هو الذي يتجاوز الفاعل إلى المفعول، أو هو الذي يصل إلى مفعوله بغير حرف جر، وعرفوا اللازم بأنه الفعل الذي يكتفي بفاعله ولا يتعداه^(٩١).

وقد ذكر النحاة أمورا متنوعة يمكن من خلالها أن يكون الفعل المتعدي لازما، والفعل اللازم متعديا^(٩٢)، والذي يهمنها منها أن التضمين أحد تلك الأمور، وإيضاحه فيما يأتي:

يقول ابن سيده: ((متى أشرب الفعل معنى فعل آخر لمناسبة بينهما تعدى تعديه أو لزم لزومه))^(٩٣). وذكر ابن هشام أن التضمين سادس أمور سبعة يتعدى بها الفعل القاصر، جاء في المغني: ((السادس: التضمين: فلذلك عُدِّيَ (رحب)، و (طلع) إلى مفعول لما تضمنا معنى (وسع)، و (بلغ)، وقالوا: فرقت زيدا، وسفه نفسه؛ لتضمُنهما معنى (خاف)، و (امتحن)، أو (أهلك)))^(٩٤).

بل زاد ابن هشام مزية للتضمين على غيره من المعديات فقال: ((ويختص التضمين عن غيره من المعديات بأنه قد ينقل الفعل إلى أكثر من درجة؛ ولذلك عُدِّيَ (ألوت)، بقصر الهمزة، بمعنى قصرت إلى مفعولين بعدما كان قاصرا، وذلك في قولك: لا ألوك نصحا، ولا ألوك جهدا، لما ضمّن معنى (لا أمنعك)، ومنه قوله تعالى: ((لا يَأْتُونَكُمْ حَبَالًا)) (آل عمران ١١٨)، وعُدِّيَ (أخبر)، و (خبر)، و (حدث)، و (أنبأ)، و (نبأ) إلى ثلاثة مفاعيل لما ضمّنت معنى (أعلم)، و (أرى) بعدما كانت متعدية إلى واحد بنفسها، وإلى آخر بالجار، نحو: ((أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ)) (البقرة ٣٣)، ((نَبِّؤُونِي بِعِلْمٍ)) (الأنعام ٤٣))^(٩٥).

ويقول مصطفى الغلاييني مبينا تنوع تعلق الفعل بحسب ما يتضمنه: لم يذكر اللغويون الفعل (اعتقد) إن تضمن معنى (صدق) إلا متعديا بنفسه، أما إن تضمن معنى (آمن) فإنه تجوز تعديته بالباء؛ لأن الفعل تختلف تعديته باختلاف استعماله ليتضح معناه المراد، وقد قالوا: اعتقد بالله، بمعنى: آمن به، والاعتقاد بالله بمعنى الإيمان به^(٩٦).

فمن أمثلة الفعل القاصر الذي تعدى بالتضمين قوله تعالى: ((وَلَا تَعَزَّمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ)) (البقرة ٢٣٥)، فالفعل (عزم) لا يتعدى إلا بحرف الجر (على)، فنقول: عزمت على كذا، فلما ضمن معنى (نوى) تعدى بنفسه، فالمعنى في الآية: ولا تنووا^(٩٧).

ومن أمثلة الفعل المتعدي الذي استعمل قاصرا بالتضمين قوله تعالى: ((فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)) (النور ٦٣)، فالفعل (خالف) يتعدى بنفسه فلما ضمن معنى (خرج، أو مال، أو عدل) عدي بحرف الجر (عن)؛ فالمعنى في الآية: فليحذر الذين يخرجون عن أمره^(٩٨).

ثالثاً: من فوائد التضمين:

من خلال ما كتبه أهل العلم في مسألة التضمين استطعت أن أتبين أموراً يمكن أن أعدها الفوائد المتوخاة من استعمال هذا الأسلوب:

١- التوسع في المعنى:

بقول الزمخشري: ((فإن قلت: أيُّ غرض في هذا التضمين؟ ... قلت: الغرض فيه إعطاء مجموع معنيين، وذلك أقوى من إعطاء معنى فذِّ))^(٩٩).

ويقول ابن هشام: ((وفائدته أن تؤدي كلمة مؤدى كلمتين))^(١٠٠).

ويقول أبو البقاء الكفوي: ((وفائدة التضمين هي أن تؤدي كلمة مؤدى كلمتين، فالكلمتان معقودتان معاً قصداً وتبعاً))^(١٠١).

واستعمال الكلمة الواحدة لتؤدي معنى أكثر مما وُضِعَتْ له في أصل دلالتها، لا أراه إلا من باب التوسع في المعنى مع إيجاز اللفظ.

٢- الإيجاز في اللفظ:

تأدية المعنى الواسع بأقل الألفاظ إنما هو ضرب من ضروب البلاغة، ألا وهو الإيجاز، يقول الشيخ محمد الخضر حسين: ((للتضمين غرض هو الإيجاز))^(١٠٢).

٣- الاختصار في الأساليب:

يقول الدكتور فاضل السامرائي: ((للتضمين غرض بلاغي لطيف، وهو الجمع بين معنيين بأقصر أسلوب، وذلك بذكر فعل وذكر حرف جر يستعمل مع فعل آخر فنكسب بذلك معنيين، معنى الفعل الأول ومعنى الفعل الثاني))^(١٠٣).

والعدول إلى طريقة مختصرة في التعبير ظاهرة بارزة في العربية، فأسلوب التضمين له ظواهر مساندة في اللغة، يقول الدكتور فاضل السامرائي: ((والعدول إلى طريقة ما في التعبير بأقصر طريق ظاهرة من ظواهر العربية، من ذلك ما مرَّ في المفعول المطلق، من ذكر فعل وذكر مصدر فعل آخر يلاقيه في الاشتقاق، كما في قوله تعالى: (وَتَبَيَّنْ لَهُ تَبَيُّنًا) (المزمل ٨)، فقد جمع معنيي: التبتل والتبتيل، أي: التدرج والكثرة في أن واحد.

ومنه ما ذكرنا في قوله تعالى: (وَادْعُوهُ حَوْفًا وَطَمَعًا) (الأعراف ٥٦)، فقد كسبنا باستعمال المصدر بدلاً من اسم الفاعل معنى الحالية والمفعول لأجله والمفعولية المطلقة، بخلاف ما لو قال: ادعوه خائفين؛ فإنه ليس فيه إلا معنى الحالية))^(١٠٤).

٤- تفسير المعنى:

للتضمين أثر مهم في تفسير بعض التراكيب اللغوية التي قد تبدو في ظاهرها ممتعة، وذلك من خلال بيان ما تتعلق به المعمولات في تلك التراكيب.

فمن ذلك قوله تعالى: ((فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةً عَامٍ)) (البقرة ٢٥٩)، فإن المتبادر إلى الذهن انتصاب (مئة) بـ(أماته)، وذلك ممتنع مع بقاءه على معناه الوضعي؛ لأنَّ الإماتة سلب الحياة، وهي لا تمتد، والصواب أن يضمن (أماته) معنى (ألبثه)، فكأنه قيل: فألبثه الله بالموت مئة عام، وحينئذٍ يتعلق به الظرف بما فيه من المعنى العارض له بالتضمن^(١٠٥).

٥- يعصم عن الخطأ:

إنَّ الجهل بهذا الباب قد يؤدي إلى الوقوع في الخطأ في الحكم على بعض التراكيب العربية الصحيحة.

من ذلك ما ذكره ابن هشام في قوله تعالى: ((لِّلَّذِينَ يُؤَلُّونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ)) (القرة ٢٢٦)، قال: ((ولمَّا خفي التضمين على بعضهم في الآية، ورأى أنه لا يقال: حلفت من كذا، بل حلفت عليه، قال: (من) متعلقة بمعنى (للذين)، كما تقول: لي منك مبرة، وقال: وأمَّا قول الفقهاء آلى من امرأته، فغلط أوقعهم فيه عدم فهم المتعلق في الآية))^(١٠٦).

٦- يدعو إلى الأنس بالعربية، والفقهاء فيها، والبحث عن أسرارها:

يقول ابن جني بعد أن بين التضمين، وذكر له شواهد كثيرة: ((فإذا مرَّ بك شيء منه فتقبله، وانس به، فإنه فصل من العربية لطيف حسن، يدعو إلى الأنس بها والفقهاء فيها))^(١٠٧).

ويبين ابن جني في موضع آخر أسرار استعمال بعض الحروف مع بعض الأفعال التي لا تتعدى بها فيقول: ((وذلك أنه قد يستعمل في الأفعال الشاقة المستقلة على قول من بقول: قد سرنا عشرًا وبقيت علينا ليلتان، وقد حفظت القرآن وبقيت عليّ منه سورتان، وقد صمنا عشرين من الشهر وبقينا عشر، وكذا يقال في الاعتداد على الإنسان بذنوبه وقبيح أفعاله: قد أخرج عليّ ضيعتي، وموت عليّ عواملي، وأبطل عليّ انتفاعي...))

وإنما اطردت (على) في الأفعال التي قدمنا ذكرها مثل: خربت عليه ضيعته، وموتت عليه عوامله، ونحو ذلك من حيث كانت (على) في الأصل للاستعلاء، فلما كانت هذه الأحوال كُلفاً ومَشَاقِّ تخفض الإنسان وتضعه وتعلوه وتقرعه حتى يخضع لها ويخنع لما يتسدّاه منها كان ذلك من مواضع (على) ألا تراهم يقولون: هذا لك، وهذا عليك، فتستعمل (اللام) فيما تؤثره، و(على) فيما تكرهه))^(١٠٨).

الخاتمة

وفي ختام هذه الوقفة العلمية يمكن أن أوجز ما تقدم بأمر منها:
أولاً: إنَّ التضمين من الظواهر المهمة في اللغة العربية، وقد كان لها موقعها في كتب النحو والبلاغة، فصلتها بالنحو من جهة التركيب واللفظ، وصلتها بالبلاغة من جهة المعنى.
ثانياً: كان القول بالتضمين مثار جدل بين علماء النحو، بين قائل به متوسع فيه، وبين متشدد في نفيه مضيق لوجوده، أما علماء البلاغة فقد أجمعوا على وجوده وقياسيته.
ثالثاً: كان التضمين باباً واسعاً من أبواب التوسع في المعنى؛ لذا اعتمد عليه المحققون من العلماء في إبراز سمات العربية، ودقتها في التعبير.
رابعاً: إن في هذا البحث بياناً موجزاً لدقة العرب في اختيار ألفاظها، وما يبدو في ظاهره متطابقاً قد يحمل في طياته تنوعاً كبيراً.
خامساً: قد تبين من خلال صفحات هذا البحث أنَّ التضمين لا يقتصر على تعدي الفعل بالحرف، وإن كان هو الغالب، فهو أوسع من ذلك، إذ يشمل الأسماء والحروف.
سادساً: كان التضمين عند القائلين به باباً واسعاً من أبواب التعليل النحوي، لجأ إليه النحاة في كثير من المسائل النحوية، وقد تقدم بيانها.

هوامش البحث

- ١- دلائل الإعجاز: ٣٠.
- ٢- ينظر: صحيح البخاري: ٦٣، وصحيح مسلم: ٧٨٣.
- ٣- ينظر: البيان في غريب إعراب القرآن: ٣٠٣/٢، و التبيان في إعراب القرآن: ٢٠٥/٢، والنهية في غريب الحديث والأثر: ٤٤٥ (سمع) ومغني اللبيب: ٦٨٥/٢، ولسان العرب (سمع).
- ٤- الفروق اللغوية: ٢٥٢.
- ٥- ينظر: كشاف اصطلاحات الفنون: ٨٩٥/٢.
- ٦- ينظر: تهذيب اللغة (ضمن)، والمحيط في اللغة (ضمن)، و اللسان (ضمن).
- ٧- ينظر: العين (ضمن)، اللسان (ضمن).
- ٨- ينظر: اللسان (ضمن).
- ٩- ينظر: العين (ضمن)، وتهذيب اللغة (ضمن)، و اللسان (ضمن)، و العمدة: ١٧١/١، والمثل السائر: ٣٢٤/٢.
- ١٠- الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز: ٥٤.
- ١١- رسالة في التضمين (مخطوط): ق. ٢٢٣.
- ١٢- شرح التصريح: ٥/٢.
- ١٣- ينظر: أسلوب التضمين وأثره في التفسير: ٣٤، والتضمين في العربية: ٨.
- ١٤- ينظر: أسلوب التضمين وأثره في التفسير: ٣٥، و التضمين في العربية: ١٣.
- ١٥- التضمين في العربية: ١٦.
- ١٦- ينظر: أسلوب التضمين وأثره في التفسير: ٣٧، ومجلة مجمع اللغة العربية الملكي: ١٨٠، ١٩٤.
- ١٧- التضمين (مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق): ٦٥.
- ١٨- ينظر: ظاهرة التضمين البلاغي (مجلة أبحاث اليرموك): ١٧.
- ١٩- المثل السائر: ٢٠١/٣.

- ٢٠- ديوان كشاجم: ٢٦٢.
- ٢١- عيون الأخبار: ١٩٦/٢.
- ٢٢- التضمين في العربية: ١٨.
- ٢٣- ينظر: التضمين في العربية: ٢٤، وأسلوب التضمين وأثره في التفسير: ٢٧.
- ٢٤- ينظر: التضمين في العربية: ١٨، وظاهرة التضمين البلاغي (مجلة أبحاث اليرموك): ١٧.
- ٢٥- أسرار العربية: ٥٢/١.
- ٢٦- شرح المفصل: ١٠٦/٤.
- ٢٧- الكشاف: ٢٥٧/٢.
- ٢٨- الخصائص: ٣٠٦/٢.
- ٢٩- مغني اللبيب: ٦٨٥/٢.
- ٣٠- دراسات في العربية وتاريخها: ٢٠٧.
- ٣١- ينظر: مجلة مجمع اللغة العربية الملكي: ١٨٢.
- ٣٢- ينظر: التضمين في العربية: ٤١-٤٢.
- ٣٣- التضمين (مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق): ٦٥-٦٦، وينظر: التضمين (مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق): ٦٢.
- ٣٤- ينظر: التضمين في العربية: ٤٦، ومجلة مجمع اللغة العربية الملكي: ١٨٢.
- ٣٥- الخصائص: ٣٠٨/٢.
- ٣٦- الأشباه والنظائر: ١٣٣/١.
- ٣٧- ينظر: ص ٧ من البحث.
- ٣٨- مغني اللبيب: ٦٨٥/٢.
- ٣٩- مغني اللبيب: ٥٣٠/٢.
- ٤٠- الكليات: ٢٦٦، في النص تصريح بأن (ما) الشرطية حرف، والصواب أنها اسم، ينظر: الجنى الداني: ٣٣٥، ومغني اللبيب: ٣٠٢/١.
- ٤١- الخصائص: ٣٠٦/٢.
- ٤٢- الخصائص: ٣٠٧/٢.
- ٤٣- الخصائص: ٣٠٨/٢.
- ٤٤- الخصائص: ٣٠٨/٢.
- ٤٥- ينظر: شرح المفصل: ١٥/٨، ومغني اللبيب: ١١١/١، وشرح الرضي: ٣٨٢/٢، والتصريح: ٤/٢، وحاشية الخصري: ٤٦٥/١، ومعاني النحو: ٦/٣.
- ٤٦- الفروق اللغوية: ١٣.
- ٤٧- شرح الرضي: ٣٨٢/٢.
- ٤٨- الأصول: في النحو: ٥٠٥-٥٠٦.
- ٤٩- معاني النحو: ٨/٣.
- ٥٠- ينظر: معاني النحو: ١٠/٣.
- ٥١- معاني النحو: ١٤/٣.
- ٥٢- الأشباه والنظائر: ١٣٥/١. ومثال عدم اختلاف الإعراب قولنا: والله لأفعلن، والله أفعلن. ينظر: الأشباه والنظائر: ١٣٧/١.
- ٥٣- الأشباه والنظائر: ١٣٥/١، ولهذا الأمر تفصيل يأتي في محله.
- ٥٤- الأشباه والنظائر: ١٣٨/١، وينظر: شرح المفصل: ١٠٦/٤.
- ٥٥- شرح ابن عقيل: ٣٣٥/٣.
- ٥٦- الأشباه والنظائر: ١٣٩/١.
- ٥٧- ينظر: الأشباه والنظائر: ١٣٩، والكليات: ٢٦٦.
- ٥٨- ينظر: الأشباه والنظائر: ١٣٩/١، وشرح المفصل: ١٠٦/٤.
- ٥٩- الخصائص: ٣١٥/٢.
- ٦٠- الأشباه والنظائر: ١٣٦/١.
- ٦١- النحو الوافي: ٥٨٣/٢.
- ٦٢- مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة: ١٨٠/١، وينظر: النحو الوافي: ٥٩٤/٢، ومجلة مجمع اللغة العربية بدمشق: ٨١/١.
- ٦٣- ينظر: مجلة مجمع اللغة العربية الملكي: ١٩٥/١.
- ٦٤- الخصائص: ٣١٠/٢.
- ٦٥- ينظر: الخصائص: ٣٠٨/٢، ٤٣٥، والألمالي: ١٤٧/١، والأشباه والنظائر: ١٣٥/١.

- ٦٦- الأمالي: ١/١٤٧
 ٦٧- معني اللبيب: ٢/٦٨٥
 ٦٨- الأمالي: ١/١٤٧
 ٦٩- الكشف: ٢/٢٥٧
 ٧٠- الخصائص: ٢/٣٠٩، و ينظر: ٣/٢٦٣
 ٧١- الخصائص: ٢/٤٣٥، و ينظر: ٢/٣١٠، والأشباه والنظائر: ١/١٣١
 ٧٢- الخصائص: ٢/٣١١
 ٧٣- و ينظر: شرح ابن عقيل: ١/٢٣
 ٧٤- أسرار العربية: ١/٥١
 ٧٥- شرح ابن يعيش: ٤/١٠٤
 ٧٦- شرح ابن يعيش: ٤/١٠٩
 ٧٧- أسرار العربية: ١/٤٩
 ٧٨- شرح ابن عقيل: ١/٣٢
 ٧٩- أسرار العربية: ١/٥٢
 ٨٠- ينظر: التضمين في العربية: ٥٠
 ٨١- التبيين في إعراب القرآن: ١/٤٣
 ٨٢- أسرار العربية: ١/٢٤٥
 ٨٣- شرح ابن يعيش: ٤/١١٢
 ٨٤- ينظر: التضمين في العربية: ٥٢
 ٨٥- التبيين عن مذاهب النحويين: ٢٠١
 ٨٦- الإنصاف في مسائل الخلاف: ١/٣٣
 ٨٧- التبيين عن مذاهب النحويين: ٢٠٢، و ينظر: الإنصاف: ١/٣٦
 ٨٨- شرح ابن يعيش: ٤/٥٠، و ينظر: الإنصاف: ٢/٤٢٥، وهي قراءة أبي بن كعب، وغيره.
 ٨٩- ينظر: الأشباه والنظائر: ١/١٣٨
 ٩٠- الأشباه والنظائر: ١/١٣٨
 ٩١- ينظر: المقرب: ١/١١٤، و شرح ابن عقيل: ١/٥٣٣
 ٩٢- ينظر: معني اللبيب: ٢/٥٢٥
 ٩٣- المخصص: ١٤/٧٠
 ٩٤- معني اللبيب: ٢/٥٢٥
 ٩٥- معني اللبيب: ٢/٥٢٥
 ٩٦- ينظر: نظرات في اللغة والأدب: ١١
 ٩٧- ينظر: التبيين في إعراب القرآن: ١/١٨٨، و معني اللبيب: ٢/٥٢٥
 ٩٨- ينظر: التبيين في إعراب القرآن: ٢/٩٧٩، و معني اللبيب: ٢/٥٢٥
 ٩٩- الكشف: ٢/٢٥٧
 ١٠٠- معني اللبيب: ٢/٦٨٥
 ١٠١- الكليات: ٢٦٧
 ١٠٢- دراسات في العربية وتاريخها: ٢٠٥
 ١٠٣- معاني النحو: ٣/١٤
 ١٠٤- معاني النحو: ٣/١٥
 ١٠٥- ينظر: معني اللبيب: ٢/٥٣٠
 ١٠٦- معني اللبيب: ٢/٦٨٥
 ١٠٧- الخصائص: ٢/٣١٠
 ١٠٨- الخصائص: ٢/٢٧١. تفرعه: تعلقه، وتسده: ركبه وعلاه.

المصادر والمراجع

- ❖ أسلوب التضمين وأثره في التفسير: زيد عمر عبد الله ، بحث منشور في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية/جامعة الكويت، العدد (٤٩)، السنة(١٧)، ربيع الأول ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م(ص٢١ - ص٨٥).
- ❖ الأشباه والنظائر في النحو: السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، ت٩١١هـ، راجعه: د. فائز ترحيني، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٩٩٦م.
- ❖ الأصول في النحو : ابن السراج، محمد بن سهل، ت٣١٦هـ، تحقيق:د. عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٧م.
- ❖ الأمالي الشجرية : ابن الشجري، هبة الله بن علي، ت٥٤٢هـ، دار المعرفة، بيروت،(د.ت).
- ❖ البيان في غريب إعراب القرآن: الأنباري، عبد الرحمن بن محمد، ت٥٧٧هـ، تحقيق:مصطفى السقا، وطه عبد الحميد، القاهرة، ١٩٦٩م.
- ❖ التبيان في إعراب القرآن: العكبري، عبد الله بن الحسين، ت٦١٦هـ ، تحقيق: علي محمد البجاوي، عيسى البابي، القاهرة، ١٩٧٦م.
- ❖ التبيين عن مذاهب النحويين البصريين والكوفيين: العكبري، عبد الله بن الحسين، ت٦١٦هـ، تحقيق:د. عبد الرحمن العثيمين، مكتبة العبيكان، ط١، ٢٠٠٠م.
- ❖ التضمين : صلاح الدين الزعبلوي، بحث منشور في :مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، ج١/مج٥٥، صفر ١٤٠٠هـ - كانون الثاني ١٩٨٠م(ص٦١-١٠٧ص).
- ❖ التضمين في العربية : أحمد حسن حامد، الدر العربية للعلوم/بيروت، ودار الشروق/فلسطين، ط١، ٢٠٠١م.
- ❖ الجنى الداني في حروف المعاني : المرادي، حسن بن قاسم، ت٧٤٩هـ، تحقيق:د. طه محسن، الموصل، ١٩٧٦م.
- ❖ حاشية الخضري على شرح ابن عقيل: الخضري، محمد بن مصطفى، ت١٢٨٧هـ، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
- ❖ الخصائص: ابن جني:عثمان بن جني، ت٣٩٢هـ، تحقيق: محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت،(د.ت).
- ❖ دراسات في العربية وتاريخها : محمد الخضر حسين، الناشر: المكتب الإسلامي، ومكتبة دار الفتح، دمشق، ط٢، ١٩٦٠م.

- ❖ دلائل الإعجاز : الجرجاني، عبد القاهر بن عبد الرحمن، ت ٤٧١هـ، تحقيق: فائز رضوان الداية، دار قنتية، دمشق، ١٩٨٣م.
- ❖ ديوان كشاجم : كشاجم، محمود بن الحسين، ت ٣٦٠هـ، دراسة وشرح الدكتور النبوي عبد الواحد شعلان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ١، ١٩٩٧م.
- ❖ رسالة في تحقيق التضمين : ابن كمال باشا، أحمد بن سليمان، ت ٩٤٠هـ، مخطوط محفوظ في مركز جمعة الماجد برقم (٣٦٧٦)، وهو مصور عن نسخة مكتبة جامعة برنستون في أمريكا برقم (٤٢١٨) ، ضمن مجوع من (٢٢٢ - ٢٢٩).
- ❖ شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، : ابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن القرشي، ت ٧٦٩هـ ، تعليق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة التراث، القاهرة، ط ٢٠، ١٩٨٠م.
- ❖ شرح التصريح على التوضيح : خالد بن عبد الله الأزهرى، ت ٩٠٥هـ، دار إحياء الكتب العربية، (د.ت).
- ❖ شرح الرضي على الكافية : رضي الدين الأسترابادي، محمد بن الحسن، ت ٦٨٦هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).
- ❖ شرح المفصل : ابن يعيش، يعيش بن علي، ت ٦٤٣هـ، عالم الكتب، بيروت، (د.ت).
- ❖ صحيح البخاري : البخاري، محمد بن إسماعيل، ت ٢٥٦هـ، طبع ضمن موسعة الأحاديث الشريفة بإشراف صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، دار السلام، السعودية، ط ٣، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
- ❖ صحيح مسلم : مسلم بن الحجاج، ت ٢٦١هـ، طبع ضمن موسعة الأحاديث الشريفة بإشراف صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، دار السلام، السعودية، ط ٣، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
- ❖ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده : ابن رشيق، الحسن بن رشيق، ت ٤٦٣هـ، تحقيق: محمد محيي الدين، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٢م.
- ❖ عيون الأخبار : ابن قنتية، عبد الله بن مسلم الدينوري، ت ٢٧٦هـ، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ت).
- ❖ الغرض من قرارات المجمع والاحتجاج لها: أحمد الإسكندري، مجلة مجمع اللغة العربية الملكي، المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة، ج ١/ (١٧٧-١٩٩)، رجب ١٣٥٣هـ - ١٩٣٤م.
- ❖ الفروق اللغوية : أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله، ت ٣٩٥هـ، تحقيق: حسام الدين القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ت).
- ❖ كشاف اصطلاحات الفنون : التهانوي، محمد أعلى بن علي، ت بعد ١١٥٨هـ، دار صادر، بيروت، (د.ت).

- ❖ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: الزمخشري، محمود بن عمر، ت٥٣٨هـ، مصطفى البابي الحلبي، مصر، (د.ت).
- ❖ الكليات : الكفوي:أيوب بن موسى، ت١٠٩٤هـ، أعدده للطبع: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٩٨م.
- ❖ لسان العرب : ابن منظور، محمد بن مكرم، ت٧١١هـ، دار صادر، بيروت، (د.ت).
- ❖ المثل السائر في أدب الكاتب الشاعر: ابن الأثير، نصر الله بن محمد، ت٦٣٧هـ، تحقيق أحمد الحوفي ، وبدوي طبانة، مكتبة النهضة، القاهرة، ط١، ١٩٦٢م.
- ❖ المخصص : ابن سيده، علي بن إسماعيل، ت٤٥٨هـ ، دار الفكر، بيروت، (د.ت).
- ❖ معاني النحو : فاضل صالح السامرائي، العراق، الموصل، ١٩٨٩م - ١٩٩٠م.
- ❖ مغني اللبيب عن كتب الأعراب: ابن هشام الأنصاري، عبد الله بن يوسف، ت٧٦١هـ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، ١٩٨٧م.
- ❖ المقرب : ابن عصفور، علي بن مؤمن، ت٦٦٩هـ، تحقيق: أحمد عبد الستار الجوارى، وعبد الله الجبوري، مطبعة العاني، بغداد، ط١، ١٩٧١م.
- ❖ النحو الوافي : عباس حسن، دار المعارف، مصر، (د.ت).
- ❖ نظرات في اللغة والنحو : مصطفى بن محمد الغلاييني، ت١٣٦٤هـ، مطبعة طيارة ، بيروت، ١٩٣٧م.
- ❖ النهاية في غريب الحديث والأثر: ابن الأثير، المبارك بن محمد بن محمد، مجد الدين، ت٦٠٦هـ، تحقيق: علي بن حسن الحلبي الأثري، دار ابن الجوزي، السعودية، ط١ ، ١٤٢١هـ.